محاضرة في مقياس: أنثروبولوجيا الاتصال

د. باغور يمينة

نظرية راي بيردويستل للتواصل (التواصل والأنثروبولوجيا واللسانيات)

التعريف ب(راي بيردويستل): عالم اجتماع وأنثروبولوجي أمريكي من مواليد 28 سبتمبر 1918 ب(سينسيناتي) وتوفي في 19 أكتوبر1994، اهتم بلغة الجسد ودورها في التواصل وصاغ في 1952 مصطلح (علم الحركة) لتحليل التعبير الجسدي، له مؤلفات عديدة أهمها:

Kinesics and context(1970)- Introduction to Kinesics: An annotation system for analysis of body motion and gesture (1952)- El lenguaje de la expression corporal (1979)

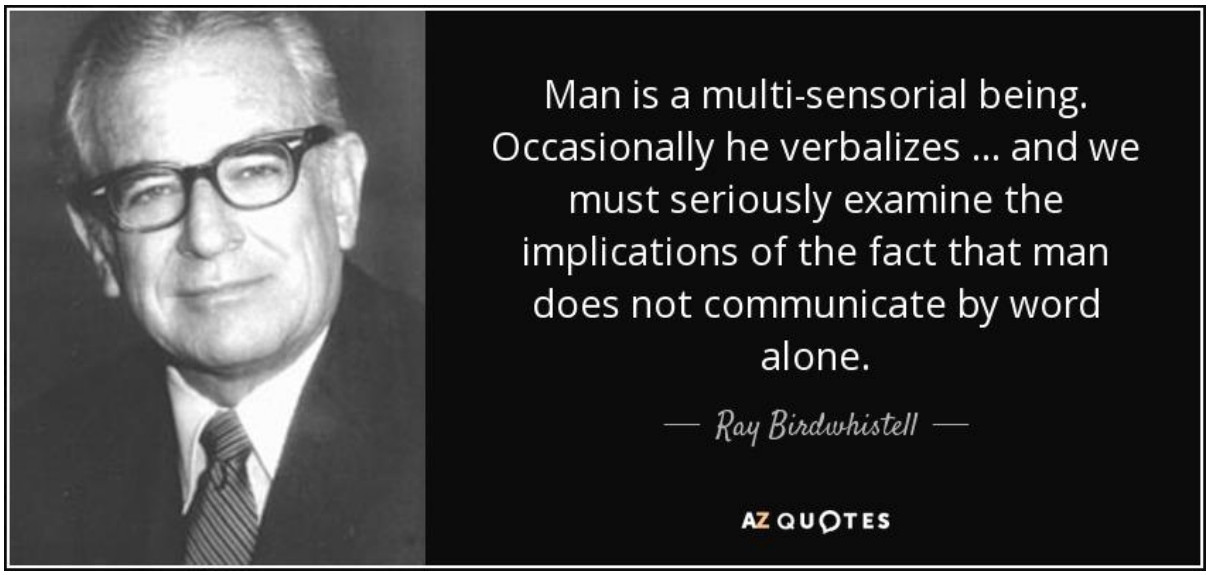

الإنسان كائن متعدد الحواس وهو يتكلَم أحيانا ... وعلينا أن ندرس بجدَية الآثارالمترتَبة على حقيقة أنَ الإنسان لا يتواصل بالكلام وحده

1- التحليل الحركي: أو التحليل الكينيسي وهو دراسة متخصصة قام بها (بيردويستل) وتعنى بتحليل الحركات الجسدية والأنماط الحركية في سياق التواصل الإنساني بطريقة علمية من خلال اقتراح " الحركات الحركية أو ما أسماه الكينيم" على نموذج "الصوتيات" في الكلام، وتكمن أهمية هذه الدراسة في أنَ التحليل الكينيسي مكرَس لدراسة السلوك الحركي للإنسان بمعزل عن اللغة المنطوقة ولكنه مع ذلك يعكس ارتباطا كبيرا بالتواصل، ركز (بيردويستل) على تصنيف الحركات الجسدية إلى وحدات صغيرة تعرف باسم "الكينيمات" وهي المكافئ الحركي للوحدات الصوتية "الفونيمات" في اللغة

ويتكون التحليل الكينيسي من: الكينيمات (وحدات صغيرة ومميَزة للحركة) و التراكيب الكينومورفولوجية (وهي تنظيم الحركات على مستويات أعلى). ويستخدم التحليل على مستويين: التحليل الدقيق أو الميكروكينيسيك ويهتم بتحليل الحركات البسيطة أو الوحدات الصغرى، والتحليل الشامل أو المايكروكينيسيك ويركَز على الهياكل الكبيرة والمعقَدة للحركات، وفي فكر (بيردويستل) تتمثل مهمة "الباراكينز" في وصف خصوصية السلوكيات وإدراجها في سياقات نفسية واجتماعية مختلفة لكن يبدو أنَ هناك اهتماما ثالثا يجذب انتباه (بيردويستل) بشكل متزايد وهو: دراسة السلوكيات الحركية المرتبطة باللغة

ويشرح بيردويستل ما سبق قائلا: **"الحركة بالمعنى الواسع تتحدى هذه المرة الصمت الذي حاصر السلوك البشري وتضع نفسها على المستوى التواصلي المعقد للتفاعل بين حركة الدلالة واللغة اللفظية... في التدفق الحركي يتوفر أمران من الحقائق للتحليل فمن ناحية هناك فئة من الظواهر الحركية الشكلية التي تظهر في تسلسلات التفاعل المصاحبة أو غير المصاحبة للكلام، إنَ تحليل هذا النوع من السلوك جعل من الممكن إسناده غلى المجال المحدَد للحركية الكليَة والذي يتولى مسؤولية العناصر الهيكلية للإنشاءات الحركية المعقدة أي تلك التي تشبه الكلمة والجملة والفقرة. ومن ناحية أخرى ترتبط هذه الأشكال شديدة التنظيم بسلوكيات من ترتيب آخر تتميز باختلافات في الدرجة في شدة الحركات وتكرارها ومداها ومدتها ونظرا لأنَهذه السلوكيات تشبه السلوكيات الصوتية التي حاول اللغويون تجميعها تحت اسم مجاورات اللغة فقد وصفناها تحت اسم "باراكينيزيك" وتتمثل خصائصها في الإشارة**

بعدة طرق إلى الرسائل الحركية أو اللغوية المتبادلة وتعمل هذه الإشارات على تضخيم البناءات أو إبرازها أو تعديلها"[1]

ولأجل ذلك قام (بيردويستل) بملاحظة تفاعل مجموعة من الأشخاص المتواصلين فيما بينهم من خلال فيلم (ملاحظة حركات الجسم ووضعياته وإيماءات وتعابير الوجه) لكن المحاولة لم تنجح لأسباب تتعلّق بالاختزال وبتعقيدات تقنية (6 ثوان من الفيلم تستغرق مئات الأوراق)، لكن باستخدام الطريقة التي بدأها بيردويستل تمكّن عالم الأنثروبولوجيا غريغوري باتيسون فيما بعد من فك شفرة فيلم يتتبَع التفاعل بين أم من جزيرة بالي وابنها ففي لقطة قصيرة لاحظ عدة تكرارات لنفس التفاعل الأم تجذب الطفل بالكلمات وتدفعه بعيدا بالإيماءات،وهكذا سوف يتحدث عن "نشوء الانقسام" ثم عن "الربط المزدوج" في تفسيره لهذا النوع من التواصل المتناقض.

2- خطر الاختزال في الاتصالات: كان بيردويستل واضحا فيما يتعلق بخطر اختزال الاتصال في عملية ميكانيكية وقد فسر التواصل غير اللفظي من خلال مقارنته بفيسيولوجيا الإنسان فالتواصل غير اللفظي لا يرتبط فقط بالعقل ولكنه أيضا مسألة فيسيولوجية تماما مثل جسم الإنسان مع التمييز بين علم وظائف الأعضاء (الوظيفة الداخلية للجسم) والتشريح (بنية الجسم)، التواصل غير اللفظي أمر ضروري ويمتد إلى ما هو أبعد مما هو مرئي من الخارج تماما كما يمتد علم وظائف الأعضاء إلى ماهو أبعد من علم التشريح.

في هذا المقتطف تتم مقارنة التواصل اللفظي بعلم التشريح بينما يتم مقارنة التواصل غير اللفظي بعلم وظائف الأعضاء ويبدو أن بيردويستل يستخدم هذه المقارنة للتأكيد على تمييز مهم:

- التواصل اللفظي (اللغة المنطوقة) يشبه علم التشريح فهو يمثل البنية المرئية والملموسة مثل الكلمات أو الأصوات التي تشكّل الكلام، إنَه واضح ومنظَم ويمكن التعرَف عليه بسهولة.

- من ناحية أخرى يمكن مقارنة التواصل غير اللفظي بعلم وظائف الأعضاء فهو يتعلّق بالعمليات الداخلية الأقل وضوحا بالعين المجرَدة ولكنه ضروري أيضا للأداء العام، يشمل التواصل غير اللفظي الإيماءات وتعبيرات الوجه وعناصر أخرى تلعب دورا رئيسيا في التواصل على الرغم من عدم التعبير عنها لفظيا.

[1] Ray. L. Birdwhistell: L'analyse Kinésique (article), Languages(numéro thématique: pratiques et languages gestuels;1968/10,p 102.

باختصار التواصل اللفظي اكثر واقعية وتنظيما في حين يشير التواصل غير اللفظي إلى جوانب أكثر دقَة وجوهرية للسلوك البشري.

يشير بيردويستل أيضا إلى أنَ الفرد الذي لا يتواصل من خلال الكلام لا يزال بإمكانه المشاركة في التواصل بطرق مختلفة مثل الإيماءات أو الحركة أو حتى عن طريق إصدار الأصوات، وهذا الفرد لا يمكن اعتباره "خالق" التواصل لكنه يقوم بدور نشط فيه وهذا يسلَط الضوء على أهمية الجسد وأشكال التفاعل الأخرى بما يتجاوز اللغة اللفظية في التواصل اللغوي.

مفهوم البنية الحركية عند بيردويستل:

البنية الحركية وفقا لبيردويستل تشير غلى الطريقة التي تستخدم بها الحركات الجسدية كجز ء من نظام تواصلي متكامل، كان يعتقد أنَ هذه الحركات ليست عشوائية بل تخضع لنظام وقواعد يمكن تحليلها ودراستها وفيما يلي أهم أفكاره حول هذا الموضوع:

1_ الحركات كجزء من اللغة: يرى (بيردويستل) أنَ حركات الجسم مثل تعبيرات الوجه والإيماءات وغيرها من الوضعيات الجسدية يمكن ان تفهم على أنَها لغة لها قواعد محددة مثل اللغة المنطوقة، وأشار إلى أنَ الحركات ليست مجرد تعبيرات طبيعية بل هي نتاج ثقافي واجتماعبي وهي تختلف باختلاف الثقافات والمجتمعات.

2_ الوحدات الحركية: اقترح بيردويستل أنَ الحركات يمكن تقسيمها إلى وحدات صغيرة والتي تدمج معا لتكوَن المعاني وهذه الوحدات تستخدم للتعبير عن المشاعر والنوايا والمعلومات وقد تكون أكثر دقَة من الكلام أحيانا.

3_ العلاقة بين الحركة والسياق: اكد (بيردويستل) على علاقة الحركات بالسياق الاجتماعي والثقافي الذي تحدث فيه، فنفس الحركة قد تحمل معان مختلفة من ثقافة لأخرى.

4_ تأثير الثقافة: اشار (بيردويتل) إلى أنَ الطريقة التي نستخدم بها اجسادنا للتواصل تتأاثر بشكل كبير بثقافتنا وتجاربنا الاجتماعية (الحركات ليست عالمية بالكامل بل تعكس خصوصية ثقافية).

إسهامات (بيردويستل) في دراسة البنية الحركية:

1_ التحليل التفصيلي للحركات: استخدم بيردويستل التكنولوجيا مثل الكاميرات لتحليل الحركات بدقة شديدة.

2_ التواصل المتعدد القنوات: اعتبر بيردويستل أنَ التواصل البشري عملية متعددة القنوات تجمع بين الحركات والصوت والكلمات.

الخاتمة:

نالت أبحاث بيردويستل اهتماما كبيرا فقد أظهرت أنَ حركات الجسد ليست مجرد تعبيرات غريزية بل هي جزء معقد ومهم من النظام التواصلي يخضع للتأثير الثقافي والاجتماعي ويمكن دراسته وتحليله بطرق علمية دقيقة، لكنها أيضا تعرَضت للنقد خصوصا بشأن افتراضه أن حركات الجسد منظمة مثل اللغة المنطوقة فالبعض يفسرها بناء على العفوية والسياق.

استمر بيردويستل في البحث حتى وفاته عام 1994 وترك وراءه أعمالا كثيرة أثَرت على مجالات علم النفس والأنثروبولوجيا وعلوم الاتصال.